المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

الحركة الإسلامية في صنغاي خلال عهد الاسكيا محمد الكبير (898–923هـ/1439–1528م)

د.حواء محمد طلاق علي /قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب، جامعة سرت، سرت، ليبيا
Hawa.talag@su.edu.ly

الملخّص

إن المعلومات التاريخية حول الحياة الدينية في عموم السودان الغربي قليلة نوعاً ما، بالمقارنة مع مدن الشمال الأفريقي ، إذا اقتصرت كتب المؤرخين السودانيين المحليين على إبراز الأوضاع السياسية والاقتصادية هناك، دون الاهتمام البارز بالحياة الدينية والثقافية، فجاءت معلوماتها قليلة لا تفي بالغرض، ولأن صنغاي من مدن السودان الغربي فإن الحياة الدينية فيها لا تقل ولا تفرق كثيرا عن مثيلاتها من المدن السودانية الإسلامية ولا سيما مالي.

انتشرت الثقافة العربية الإسلامية في بلاد السودان الغربي بفضل ثلاث وسائل رئيسية هي : طرق القوافل التجارية، والتجار العرب المغاربة وتنظيماتهم، والدعاة والمبشرون الأفارقة أنفسهم، غير أن العامل الأهم والذي ساعد على نشر الإسلام في تلك المملكة يعود في الحقيقة إلى الدين الإسلامي نفسه، فهو ذو نظام اجتماعي راق يدعو إلى المساواة بين الناس ولا يقيم وزناً لفوارق اللون أو الطبقة، وإنما الفارقة من خلال ما يفعله العبد من أعمال صالحة، فمنذ اكتمال مراحل التعريب وسيادة الدين الإسلامي في مناطق المغرب الإسلامي في القرن (2هـ/8م) بدأت القبائل العربية تتوغل نحو الجنوب حتى وصلت إلى بلاد السودان الغربي، ولم تقف الصحراء عائقاً دون تواصل الروابط والصلات المتعددة فقد كانت طرق ما وراء الصحراء ومسالكها ومنافذها من العوامل الهامة التي ساعدت في تدفق المؤثرات العربية الإسلامية إلى مناطق السودان الغربي، وبدأت رقعة الإسلام في حالة انتشار مستمر، لاسيما بعد سقوط دولة غانة (غانا) على أيدي المرابطين و نجم عند هذا المد القادم من الشمال قيام ممالك إسلامية بلغت تقدماً حضارياً ملحوظاً نتيجة اعتناقها الإسلام.

إن حركة التبادل الإسلامي بين مدن الشمال الأفريقي وبلاد السودان الغربي لم تأخذ طابعاً واحدا، ولم تقتصر مهنة التدريس على علماء المسلمين من العرب فقط، بل اشترك الطرفان في حركة علمية إسلامية نشطة بحيث تحولت كثير من المساجد إلى مراكز إسلامية على درجة عالية من الازدهار العلمي والثقافي ، واحتوى هذا البحث عن عناوين رئيسية هامة هي :

1. الجغرافية التاريخية لمدينة صنغاي.
2. التنظيمات السياسية والاجتماعية لصنغاي.
3. الاستقلال النهائي لصنغاي عن مالي.
4. صنغاي في عهد الاسكيا محمد.
5. التنظيمات الأقتصادية والإدارية في صنغاي خلال عهد الاسكيا محمد.
6. التواصل العلمي والفكري بين صنغاي ومدن وعواصم الشمال الأفريقي .

الكلمات المفتاحية

الإسلام ، الثقافة الإسلامية ، مملكة صنغاي، الاسكيا محمد الكبير

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

Islamic Movement in Songhai during the Reign of Askia Muhammad the Great (898-923 AH / 1439-1528 CE

Hawa Mohamed Talag Ali

Hawa.talag@su.edu.ly

Abstract

Historical information about religious life in the Western Sudan region is relatively scarce compared to North African Arab cities. Local Sudanese historians primarily focused on political and economic conditions, neglecting significant attention to religious and cultural life. Consequently, their accounts are insufficient. As Songhai is one of the cities of the Western Sudan, its religious life does not differ significantly from other Islamic Sudanese cities, such as Mali.

The spread of Arab-Islamic culture in the Western Sudan was facilitated by three main means: trade caravan routes, Arab-Maghrebi merchants and their organizations, and African preachers themselves. However, the most critical factor in spreading Islam in the region was Islam itself—a sophisticated social system advocating equality among people, disregarding racial or class distinctions, and valuing individuals based on righteous deeds. By the 2nd century AH (8th century CE), Arab tribes began migrating southward, reaching the Western Sudan. The Sahara did not hinder cultural and commercial exchanges, which played a vital role in transmitting Arab-Islamic influences. The rise of Islam intensified after the fall of the Ghana Empire to the Almoravids in 1076 CE, leading to the establishment of advanced Islamic kingdoms influenced by northern influences.

The Islamic exchange between Arabs and the Western Sudan was multifaceted. Teaching was not limited to Arab Muslim scholars; both sides actively participated in a vibrant Islamic scholarly movement, transforming mosques into thriving centers of learning and culture.

This research covers key topics:

1. Historical geography of Songhai.
2. Political and social organizations of Songhai.
3. Songhai's final independence from Mali.
4. Songhai under Askia Muhammad.
5. Songhai's economy during Askia Muhammad's reign.
6. Administrative system of the Songhai Empire.
7. Islamic movement in Songhai during Askia Muhammad's reign.
8. Arabic language and Islamic culture in Songhai.

Keywords

Islam, Islamic Culture - Sungai Kingdom, Alaskan Muhammad al-Kabir

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيد الدعاة إلى الله، وعلى أصحابه البررة الذين حملوا لواء الدعوة إلى الله ونشروا رايات الإسلام خفاقة في أرجاء المعمورة حتى عليت كلمة الله وأكرر الناس من الشرك والوثنية وبعد ،

فمن المعلوم أن الإسلام انتشر في مشارق الأرض ومغاربها بعدة طرق أهمها: التجارة والفتوحات والدعاة والطرق الصوفية والهجرات العربية، والمصاهرة والاندماج. وأيضاً الرحلات العلمية وطلاب العلم والكتب والمدارس والمساجد، وهذا ما حصل في غرب أفريقيا أو ما يعرف أيضاً ببلاد السودان الغربي أو ممالك ما وراء الصحراء، وفي هذا البحث سوف يكون هدفنا استعراض الحركة الإسلامية صفاي خلال عهد الأسكيا محمد الكبير.

استطاعت بعض القبائل الأفريقية القاطنة جنوب الصحراء والتي كانت تشتغل بالرعي أو التجارة أن تضع لنفسها كياناً سياسياً، وأن تبسط سلطانها العسكري على زنوج المنطقة وتقم إمبراطورية في أقاليم المراعي، ويرجع الفضل في ذلك للإسلام الذي ساعد على توحيد تلك القبائل، ومن ثم مكنها من إقامة تلك الإمبراطورية الإسلامية التي هي الأخرى كان لها أثر فعال في نشر الإسلام. ومن أهم تلك الإمبراطوريات صنعاي.

شهدت منطقة بلاد السودان الغربي نشوء عدة كيانات سياسية إسلامية قامت كل منها على أنقاض وأكتاف إحدى القبائل القوية التي دعمت نفوذها وبسطت سلطانها، وكان لكل منها دور عظيم في نشر الإسلام في المنطقة، فمثلاً قامت إمبراطورية مالي على حساب إمبراطورية غانة، بينما قامت إمبراطورية صنغاي على أنقاض إمبراطورية مالي. إذا تجدر الإشارة هنا إلى أن صنغاي هي أحد الأقاليم التي كانت تابعة لمملكة مالي، فقد خضعت المملكة في الفترة من القرن (5هـ /11م) حتى بداية القرن (8هـ /14م) إلى غانة ثم إلى مالي، حيث أدخلها السلطان منسي موسى (منسا موسى) إلى حظيرة دولته منذ عام (730هـ/١٣٢٥م) وظلت تابعة لها حتى عام(٨٣٨هـ/١٤٣٣م) حيث كانت مدينة تمبكتو تتزعم الحياة الثقافية والاقتصادية في صنعاي، ثم نالت المملكة حريتها وأخذت تتطلع للتوسع بوصول (سني علي) – الذي كان عضو الأسرة البربرية الحاكمة– إلى السلطة في عام (٨٦٩هـ/١٤٦٤م) فبوصوله تحولت المملكة الصغيرة إلى إمبراطورية عاتية فقد كان رجلاً محبا للحرب والغزو، ولا يعرف الراحة ولا الاستقرار فبسبب ذلك تمكن من توسيع سلطانه إلى أرض الهوسا شرقاً حتى موطن الطوارق شمالاً وغرباً إلى بلاد الفولاني والماندينجو.

وكما نعرف أن الإسلام دخل بلاد السودان الغربي بشكل واسع في القرن (4هـ/10م) وخلال القرون الوسطى نشأت إمبراطوريات إسلامية لعبت دورا بارزاً في نشر الدعوة وتأسيس صرح الأمة الإسلام في تلك الأصقاع، فتاريخ الدعوة الإسلامية في القارة الأفريقية هو نفسه التاريخ الحضاري الناضج لهذه القارة، فالدعوة الإسلامية افتتحت لنفسها صفحات التاريخ وسارت في موكب الحضارة الإنسانية بل وارتبطت بالعالم الإسلامي من حولها.

بدأت مملكة صنغاي في دعم علاقاتها مع العالم الإسلامي خاصة في فترة حكم الأسكيا محمد الكبير الذي استهله بإقامة

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

صلات ثقافية وطيدة مع بعض الممالك الإسلامية المعاصرة، ففي عهده شهدت مدينتي تمبكتو وجني حركة علمية منقطعة النظير في السودان الغربي متأثرة في تقدمها بالنهضة العلمية السائدة في المراكز الإسلامية الثقافية أو ما يعرف بمراكز الشمال العظمى في كل من فأس وتلمسان ومراكش والقاهرة وطرابلس وتونس ومكة والمدينة. وأصبحت اللبنة الأولى التي وضعها الأسكيا محمد الكبير من أجل إثراء الحياة الثقافية والفكرية في المملكة بمثابة الإنطلاقة الكبرى في هذا الاتجاه (الثقافي الإسلامي) وتحت رعايته استقطبت تمبكتو – على سبيل المثال – أفواجاً من كبار العلماء، من الحجاز ومصر ومدن الشمال الأفريقي للتدريس في جامعتها و مدارسها، وفي الوقت نفسه نبغ العديد من علماء صنغاي للتدريس في جامعة الأزهر وجامعة القرويين وفأس، فضلاً عن تشجيع الدولة لطلاب العلم من أهالي صنغاي في الذهاب إلى المراكز الثقافية الإسلامية العظمى في الشمال المذكورة أعلاه وتحمل نفقاتهم ساعد ذلك على جعل المملكة منارة علمية زاهرة، وهذا ما سوف يتم توضيحه من خلال ورقات هذا البحث.

أهمية الموضوع:

تكمن الأهمية في اختيار هذا الموضوع في الآتي:

- كون صنغاي تمثل حلقة الوصل التي تربط تجارات الشمال بالجنوب السوداني، ففي تلك العصور كان التاجر الأجنبي القادم إليها يجد فيها مختلف السلع والبضائع العالمية المشرقية والمغربية والأوربية والسودانية المحلية.
- تجلت الأهمية في إيضاح أن لها طابعها العربي المميز، ولها علاقاتها المتينة التي تربطها بمدن المشرق والمغرب الإسلامي، وأن هذه العلاقات مستعرة ولم يصبها شيء من الوهن والانقطاع إلا في فترة الاستعمار الأوربي للسودان الغربي وذلك في بداية القرن (13هـ/19م).
- ترجع الأهمية، في إيضاح أن أثر هذه المملكة في الحضارة الإسلامية لم يلق حظاً وافر لدى الدارسين والباحثين، علما أنها تمثل الامتداد الطبيعي للحضارة العربية الإسلامية في السودان الغربي فأصبحت الوسيط في نقل الإسلام والثقافة العربية الإسلامية من الشمال الأفريقي إلى الجنوب الأفريقي.
- لأهمية هذه المدينة الإسلامية النشأة في كونها قاعدة السودان الغربي الحضارية في نشر الإسلام والثقافة في المنطقة لذا رأيت إن أتناول موضوع الحركة الإسلامية خلال عهد الاسكيا محمد الكبير الذي كان محبا للعلم وصديقاً للعلماء، والذي شهدت المملكة في عهده مداً ثقافياً هو الأول من نوعه، ولا سيما بعد أن تدفق إليها علماء تمبكتو.

أسباب اختيار الموضوع:

برزت صنغاي مدينة ثقافية إسلامية في بلاد السودان الغربي، تعج بالعلماء وطلاب العلم، وضمت أعدادا كبيرة من الكتاتيب والمدارس للتعليم وإقامة حلقات المساجد والجامعات للتدريس العالي، شأنها في ذلك شأن عواصم الثقافة العربية مكة، البصرة، الكوفة، بغداد، قرطبة، فضلاً عن فأس والقاهرة ومراكش، فهي لا تقل عن مستوى هذه المدن في كونها مركزا ثقافياً كبيراً في كل

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

بلاد السودان الغربي، فمن هذا المنطلق يمكن إجمال الأسباب الكامنة وراء اختيار الموضوع في الآتي:

1. لأن تاريخ هذه المدينة الإسلامية مجهولاً لأكثر دارسي التاريخ الإسلامي في الوقت الحاضر.
2. إزالة التشويه المتعمد لتاريخ انتشار الإسلام وإبراز الدور الرئيسي الذي لعبه الإسلام في تغيير مجرى الحياة في تلك المملكة.
3. لأهمية هذا الموضوع، لأنه يدرس تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في بلاد السودان الغربي عامة.
4. نظراً لأن الموضوع جديد ونادر في الأوساط البحثية، والسبب يرجع إلى كونها تقع في الطرف الجنوبي من الصحراء الأفريقية لذا لم تستقطب اهتمام الباحثين وأيضا لطغيان تسمية التكرور على الإقليم الذي تقع به صنغاي
5. وأيضاً لتأخر ظهورها مدينة ذات أهمية كبيرة بالنسبة للسودان الغربي حتى القرن (6هـ/12م)
6. نتيجة لأثرها المهم.

كل هذه الأسباب كانت وراء رغبتي وغايتي في دراسة الحركة الإسلامية لمملكة صنغاي والإلمام بما يستحق هذا الموضوع من العناية والبحث قدر المستطاع.

اقتضى البحث أن يشمل على مقدمة وعناوين رئيسية، فضلاً عن الخاتمة والتي تحوي على أهم ما توصلت إليه من نتائج بعد الدراسة والبحث في طيات الكتب المتعلقة بالموضوع.

الجغرافية السكانية لصنغاي:

الشعوب السودانية (الحامية والسامية) تحتل مكانة بارزة في تشكيل العلاقات الحضارية بين الشمال الأفريقي وبين جنوب الصحراء، ويستدعي ذلك استعراض بسيط للطبيعة الإنتروبولوجية لأهل المنطقة، إن غالبية سكان السودان الغربي ينحدرون من أربع قوميات كبرى، ثلاث منها شعوب أفريقية استطاعت الوقوف على قدميها وأن تقيم لنفسها إمبراطوريات وكيانات سياسية وهم الماندى (الماندينجو) والسوترهاى (الصنغاي) والهوسة (الهوسا)، أما الشعب الرابع فقد جاء من شعوب الغزاة أي الفولا، وهي عبارة عن قبائل رعوية بربرية الأصل ثم أصبح شعب سوداني، والذي يهمنا من هذه الشعوب الشعب الصنغاي وهو عبارة عن قبائل زنجية تقطن في الأراضي والأقاليم الواقعة جنوب تمبكتو وروافد النيجر الكبير، (إسماعيل العربي: 2020، ص242) وهي تفصل بين قبائل الماندي وإقليم السودان الأوسط، وتسمية السونغاي (الصنعاي) هي تسمية تطلق على البلاد فأخذ الناس أسمهم منها(زكي: 1961، ص104)

اغلب أهل الصنغاي عناصر مزارعة تعمل في فلاحة الأرض، أما الحضريون منهم فيعيشون في جاو (جاغ) وتمبكتو وجنى (مروة كامل: 2019، ص76) والمدن الثلاثة كانت مناطق انتشارهم الطبيعة، وإن كانت بمبكتو حديثة العهد بالنسبة لهم مقارنة بالمدن الأخرى إلا أن نزوح بعض قبائلهم إليها أمر طبيعي بفعل عامل القرب من ناحية، ولكونها مدينة نشطة تجارياً ثم ثقافياً من ناحية أخرى، ولخضوعها سياساً لسلطانهم أيام سني علي (869-897هـ/ 1464-1492م) ثم اعتبرت تمبكتو عاصمتهم الثانية التجارية والثقافية (حسن الوزان: 1982، ص166) أما جاو (جاغ) فمدينتهم الأصلية حيث خرج منها السلطان سني علي، وقد أخذ هذا الشعب في التكوين والتطور حتى استطاع تكوين

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

إمبراطورية عظيمة الشأن ظهرة في القرون الأولى للميلاد، وأنها أخذت تلعب دوراً رئيسياً في تاريخ القارة الأفريقية بأكملها خاصة بعد أن أقامت علاقات تجارية وحضارية مع مصر ودول أعالي النيل حيث اقتبست منها بعض النظم والعادات منها ألقاب الملوك، (الفتيوري: 1998م، ص24، 26).

وخلال القرن (10هـ/16م) بلغت مملكة صنغاي أقصى مراحل ازدهارها تحت حكامها الوطنيين ولا سيما بعد أن أصبحت معظم دول غرب السودان (غانا – مالي – الهوسا) دويلات تابعة لها ثم احتلت مدينة تمبكتو، وهكذا حملت هذه القبائل مشعل الحضارة والتجارة في بلاد السودان الغربي. (المزيني: 2004، ص16)

التنظيمات السياسية والاجتماعية لصنغاي :

أولاً : التنظيمات السياسية:

قامت عدة دول قديمة في بلاد السودان الغربي، مثل غانة (غانا) وسونرهاي (صنعاي) ومالي، وقد أسست قبائل البربر القادمة من الشمال الدولتين الأوليتين، فغان قامت غانة (غانا) في المنطقة التي تمتد من مدينة تمبكتو، وإلى الغرب منها وبالتحديد من منطقة روافد ومنابع النيجر إلى الشمال الغربي قامت دولة سونرهاي (صنغاي)، أما دولة مالي فأنشأها شعب سوداني هو شعب الماندينجو (الماندي) لكنها سرعان ما خضعت لقبائل الطوارق البربرية، وبنفس الطريقة نشأت دولة كانم في شمال بحيرة تشاد (الأحمد : 2010، ص155) والذي يخصنا في هذا المجال الشعب الصنغائي، الذي هو عبارة عن مجموعة قبائل زنجية تعيش في منطقة دندي الواقعة على نهر النيجر على أرض السوروكو، وقد اندمجت في بداية القرن (2هـ/8م) مع مملكة جبالي في مملكة واحدة سميت باسم "الكاوكاو" (محي يوسف: 2007، ص63) وقد انقسمت هذه القبائل إلى قسمين: قسم اشتغل بالزراعة، فأستقر بالأرض لأن طبيعة العمل في الزراعة والفلاحة تتطلب ذلك، أما القسم الثاني فاشتغل بصيد الأسماك ولأن طبيعة مهنة الصيد تتطلب الانتقال من مكان لآخر عكس مهنة الزراعة فكان هذا القسم ينتقل من مكان لآخر على طول منحنى نهر النيجر، لكن الصيادين دأبوا مهاجمة الفلاحين وإذلالهم؛ فهاجرت جماعات من قبيلة لمتونة (لمئة) البربرية إلى مناطق الفلاحين واستطاع أحد أفرادها واسمه زا اليمن أن يهاجم الصيادين ويطردهم بعيدا إلى الشمال، ففرح فلاحوا صنغاي بهذا البطل وقاموا بتنصيبه عليهم، وهكذا أصبح ملوك الصنغاي من البربر البيض ولفترة طويلة، (شلبي: 1982، ص121-122) ويتكلم السعدي (تاريخ السودان: 1964، ص4-5) عن هذا الملك بإسهاب فيذكره باسم زا اليمن وقد جاء من اليمن، وكان زعيم قبيلة لمتة البربرية التي تدفقت على النيجر.

وخلال القرنين (4-5هـ/10-11م)اعتنقت القبائل الكبرى الثلاث – السالفة الذكر– في غرب السودان الغربي الدين الإسلامي ومن بعدهم دولة كانم، وعمل ذلك على تقوية سلطة صنغاي وبسط النفوذ العربي عليها وهذا ما أدى إلى تخليها عن النظام القبلي وقيام الحكم المركزي، ومن ثم توسع مجال تجارتها مع الدول الأخرى، (الأحمد: 2010، ص156) وأنها برزت ككيان سياسي مستقل بذاتها شأنها في ذلك شأن مملكة مالي الإسلامية في أعقاب مراحل ثلاث: المرحلة الأولى، اقترنت بالتجارة

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

وبمتطلبات الرعي وتدفق الهجرات البشرية، أما المرحلة الثانية، تمثلت في جهاد قبائل صنهاجة الثلاث (لمتونة – مسوفة . جدالة) والتي تبنت تعاليم الإمام المجاهد عبد الله بن ياسين الجزولي، الفقيه المالكي الذي أنشأ رباط على مقربة من نهر السنغال وسمي أتباعه بالمرابطين، (أرنولد: 1935، ص393) في حين استهلت المرحلة الثالثة بقيام مملكتين إسلاميتين هما مملكة مالي ومملكة صنغاي، وأن أبرز مظاهر هذه المرحلة هي انتقال الزعامة الدينية والثقافية والسياسية للوطنيين المحليين سواء كانوا من أهل السودان (الأفارقة) أم من المولدين الجدد، وهم الناتجين عن طريق اختلاط الدماء العربية بالدماء الأفريقية. (حسن يوسف فضل: د.ت، ص103) والجدير بالذكر، أن مملكة صنغاي هي أحد الأقاليم التابعة المملكة مالي وكانت تحت سيطرتها حيث أدخلها السلطان منسي موسى في حضيرة دولته عام (730هـ/1325م) وظلت تابعة لها حتى عام (838هـ/1433م)، (حسين مؤنس: 1987، ص374) لأن الاستقرار الذي نعمت به، والإزدهار الذي حققته لم يدوم طويلا فسرعان ما تحول إلى تفكك وضعف نتيجة الصراع على السلطة، وأن شقيق منسي موسى المدعو السليمان منسي سلطان لم يستطيع أن يتصدى لمحاولات التفكك، فانتهزت بلاد التكرور الفرصة واسترجعت بعض أراضيها من مالي واستقلت كولاية مستقلة بذاتها عام (835هـ/1430م)، حكمها أربعة عشر ملكا وثنياً، جميعهم ماتوا في جاهلية وما آمن منهم أحد بالله ورسوله، أما الملك الخامس عشر ويدعى زاكوسي (كوساي) اسلم حوالي سنة (400هـ/ 1009، 1010م) وعرف باسم مسلم دام، (الأحمد: 2010، ص199م) ومن هنا بدأ الإسلام يتسرب بين صفوف شعب صنغاي وفي ظروف مشابهة لتلك التي تسرب بها بين شعبي غانة ومالي، وليس ببعيد أن تكون هذه المملكة تلقت بعض المؤثرات الإسلامية عن طريق العلاقات التجارية التي نشأت بينها وبين بلاد الشمال الأفريقي، أو عن طريق حركة القوافل التجارية أو عن طريق هجرات القبائل الرعوية وتحركاتها سواء كانت قبائل عربية أو قبائل بربرية، أو عن طريق الدعاة الذين كانوا يخرجون للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق، أو عن طريق الأسر المهاجرة إلى صنغاي والتي اختلطت دمائها بدماء أهل البلاد الأصليين، والتي كانت بطبيعتها أصلاً مسلمة، (الغنيمي : د.ت، ص 106، 109) وهنا يمكن القول، أن الإسلام في صنغاي قديم قدم انتشاره في بلاد الشمال الأفريقي.

بدأت مرحلة حاسمة في تاريخ مملكة صنغاي، لأن الإسلام بدأ ينتشر بين الأهالي والقبائل على نطاق واسع،ويرجع السبب في ذلك الانتشار الواسع الي ان القوافل التجارية كان يرافقها الكثير من الدعاة والعلماء الذين نذروا أنفسهم لخدمة الدين الإسلامي، وأيضاً تلك التي تخرج من صنغاي كان يصحبها طلاب العلم قاصدين المراكز العظمى في الشمال(الأزهر، القيروان، فاس، مراكش) (محمد باري: 2007، ص112)، وقد عم الاستقرار والامن حت توسعت المملكة وتضاعف مساحتها، وتطور بناء منازلها وازداد عدد سكانها حتى أصبح بها زيادة سكانية ربما لم تفقها في كثرة السكان مدينة سودانية أخرى في بلاد السودان الغربي. (سوالمية: 1986، ص42). ومما لا شك فيه أن هؤلاء السكان اختلفوا عن بعضهم البعض في الغناء والفقر والعلم والجهل حتى ظهر نظام الطبقات الاجتماعي كعادة أي مجتمع بشري، وأيضاً كان للسكان

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية سواء منها بالفطرة أو تلك المكتسبة من العادات والتقاليد العربية الإسلامية، أدخلها العرب القادمون من شمال، وهذا ما سيكون موضوع حديثنا في الفقرة القادمة.

ثانياً : التنظيمات الاجتماعية:

أن مملكة صنغاي مثلها مثل أي مدينة من مدن السودان الغربي فالحياة الاجتماعية لا تختلف كثيراً عن مثيلاتها من ناحية تركيبة المجتمع البشري الذي عرف نظام الطبقات إذا استمد جذوره من النظام القبلي القديم، وإن اختلف في أن الشخص يستطيع الانتقال من طبقة إلى طبقة أخرى وذلك بفضل ما يكتسبه من مال أو علم أو بسبب ترقية في الجيش وكما هو متعارف في أي مجتمع بشري الذي ينقسم إلى طبقات فحتى أهل صنغاي عرفوا هذه الطبقات في مجتمعهم والذي أنقسم إلى ثلاث طبقات اجتماعية وهي: **الطبقة الأولى**: وتعرف بالطبقة الراقية في المجتمع والتي تضم بطبيعة الحال الأسرة الحاكمة ومنهم الوالي أو حاكم المدينة والذي يتمتع بامتيازات واسعة لكونه حاكم المدينة المفوض من قبل السلطات مباشرة في كيفية إدارة المدينة، وهؤلاء الولاة إما من العائلة المالكة أو من المالكين الكبار للعقارات والأطيان الواسعة، (زبادية: د.ت، ص117)، وأيضا ضمت هذه الطبقة كبار العسكريين وقادة الجيش والنبلاء في المدينة، بالإضافة إلى القضاة والعلماء (محمود كعت: 1964، ص180؛ زكي؛ 1961، ص264).

وبما أن الشريحة الأولى في سلم المجتمع البشري تضم النبلاء وكبار الموظفين والحاشية الحاكمة فمما لا شك فيه أنها تمتعت بامتيازات عظيمة وسلطات واسعة مقارنة بباقي الطبقات، فالوظائف الكبرى في المدينة حكراً على أبناء هذه الطبقة؛ لأنها أقل الطبقات عددا وأكثرها غنى وثروة، فضلاً عن أن أفرادها لم تكن تطبق عليهم القوانين كما تطبق على أفراد بقية الطبقات والسبب في ذلك راجع إلى أن هيئات التنفيذ وبعض المسؤولين من الأسرة الحاكمة مما منع ذلك تنفيذ الأحكام الصادرة ضدهم. (زبادية: د.ت، ص110، 113).

والفئة الثانية: في المجتمع الصنغائي شملت التجار وهم قسمان، التجار الأجانب والتجار الوطنيون الأفارقة، وأن فئة الأجانب محترمة من قبل السلطة وتعاملهم معاملة أبناء البلاد، فالتقاليد الحكومية تقضى باحترامهم ومعاملتهم كنبلاء البلاد لأنهم مسلمين ومعظمهم من المتضلعين في الدين وقد امتاز هؤلاء التجار بغناهم ومباشرتهم الواسعة للعمليات التجارية في التصدير والاستيراد، (حسن الوزان: 1982، ص166) ونتيجة لثرائهم الواسع فقد أصبحوا من أكبر مالكي الأراضي والعقارات داخل المدن والقرى؛ لأن الملكية الخاصة مباحة للجميع (الغربي:1982، ص601)، وبالنسبة للتجار المحليين فكانوا يتاجرون بالبضائع المحلية محدودة القيمة واعتبروا أقل ثراء من التجار الأجانب، كما ضمت هذه الطبقة صغار الموظفين وأئمة المساجد والمدرسين الذين يستوفون أجورهم وعوائدهم من الخزينة العامة للدولة مقابل أعمالهم التي يقومون بها، (نوري: 1985 ص172)، وأيضا ضمت الصناع والزراع في المدينة الذين يشكلون العدد الأكبر من بين فئات المجتمع البشري (فتاح1994، ص203).

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

ومع أن هذه الفئة تفوق الطبقة الأولى، إلا إنها لم تكن تشكل نسبة مرتفعة، وأن مقياس الانتماء فيها يعتمد على المال والمستوى الفكري، وأفرادها لهم مكانة خاصة مميزة في مجتمع الصنغاي حظوا بما لدى الأسكيا محمد الكبير والوجهاء وعامة الشعب فهم فرضوا احترامهم على السلطة وعلى عامة الشعب من جزاء الاستقامة التي كانوا عليها، وأن كلمتهم مسموعة لدى السلطات العليا في المدينة (زبادية: د.ت، ص117-118)

وبطبيعة الحال، فأن هذه الفئة لا تتوافر لديها الملكيات الواسعة التي اختصت بها الفئة الأولى، وإن كانت تضم طبقة التجار الصغار والمحليين الذين عرفوا بثرائهم القليل حتى أن أغلب أفرادها لم يكن لهم مكان في وظائف الدولة العليا أو لا يشغلون مناصب وظيفية لان المناصب كانت حكرا على أبناء الطبقة الأولى. (فتاح: 1994، ص203) .

وأخيرا، تأتي في سلم المجتمع البشري في صنغاي، **الطبقة الثالثة** والأكثر عدداً وأدنى مكانة في المجتمع؛ لأنها تضم غالبية السكان أو العامة، بما فيهم العبيد والخدم والأقنان، الذين يشتغلون في جميع الأعمال سواء في الحقول أو المنازل، أي أن إنتاج الدولة معتمد عليهم؛ لأن الكثير من الأعمال الإنتاجية تقع على عاتقهم، مع أنهم كانوا في أدنى درجات السلم الاجتماعي، وذلك راجع إلى كثرتهم العددية فهم يشكلون أكثر من نصف المجتمع الصنغائي، (كعت: 1964، ص56) حتى يمكن القول أنهم يلعبون دورً هاماً في تحريك عملية الإنتاج (زبادية: د.ت، ص121) فضلاً عن كونهم من السلع التجارية المهمة التي وصلت إلى مملكة صنغاي بعدة طرق ووسائل، منها عن طريق الحرب، حيث تمكن السلاطين والملوك وكذلك الأغنياء من الحصول على العبيد والخدم، أو عن طريق أسواق النخاسة فكانوا يباعون في الأسواق المحلية ويشترون بالودع والمقايضة (زمان: 2018، ص156).

وأيضاً من ضمن شرائح هذه الطبقة، شريحة الجنود فإذا كان للعبيد دوراً هاماً في عملية الإنتاج فالجنود لهم دورٌ كبيرٌ في الخدمة العسكرية، فمعظمهم من المتطوعين الذين يعملون في الجيش بشكل دائم (زبادية: د.ت، ص66).

هذا فيما يخص طبقات المجتمع الصنغائي، أما العادات والتقاليد الاجتماعية فإن أهل صنغاي ورثوا الكثير من العادات الحضارية والاجتماعية السائدة في مملكة مالي الإسلامية؛ لأن العادات الاجتماعية وثيقة الصلة بالإنسان ومن الصعب التحول عنها في سهولة ويسر، فقد تم الامتزاج الكامل بين التقاليد الإسلامية الوافدة من مناطق الشمال الأفريقي وبين التقاليد السودانية، فكان من نتاج ذلك ظهور تقاليد إسلامية أفريقية، فكانوا يحتفلون بالمناسبات الدينية الرمضانية والنبوية، ورأس السنة الهجرية ومن العادات أيضاً الذهاب إلى المساجد ليلاً في شهر رمضان ويتشبهون بالعرب المغاربة في زيهم وفي فنهم المعماري، ونتيجة للازدهار الاقتصادي الذي شهدته صنغاي خلال عهد الأسكيا محمد الكبير فإن أهلها تأنقوا في ملبسهم كما أنهم اهتموا بصناعة الملابس والأقمشة محلية الصنع والتي كان أغلبها يصنع من القطن، فضلاً إلى تلك الملابس الحريرية المطرزة ذات الألوان الزاهية، (بليغ: 1973، ص 94) بالإضافة إلى اللون الأبيض ومعظمها عبارة عن جباب ودراريع بلا تفريج، كما أنهم أهتموا بحفظ القرآن الكريم، أما مجال العمران فإن منازل الحكام

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

والأثرياء كانت تشيد على الطراز المغربي الأندلسي بالأجر، (المنجد: 2020، ص53؛ الأحمد: 2010، ص205) وأن أهل صنغاي لم ينسوا الاهتمام بالمرأة والعناية بها، والتي قامت بدورها الطبيعي، فكانت تقضي معظم وقتها في المنزل تطهو الطعام وتطحن الدقيق وتحيك القطن والصوف وتملأ الماء. بالإضافة إلى دورها في مجال الفلاحة فتعمل في الحقل مع زوجها، كما أنها تقوم على خدمة زوجها وأطفالها، وأيضاً اهتمت بزينتها وشعرها فاستخدمت الأصباغ والحناء (بليغ: 1973، ص94؛ التكيتك: 1998، ص196-197).

الاستقلال النهائي لصنغاي عن مالي:

في النصف الثاني من القرن (9هـ/15م) بدأت صنغاي تظهر إلى العالم السياسي كمملكة مستقلة بذاتها عن مالي، ففي سنة 823هـ/1420م، انتهز الملك محمد دوغو فرصة ضعف مالي وانهيارها السياسي وقام بحملة عسكرية ضدها، وقام بتثبيت دعائم حكم صنغاي كمملكة مستقلة سياسياً واقتصادياً (السعدي: 1964، ص47).

استمر الوضع على هذا الحال حتى سنة 869هـ/1464م، إذ توفى الملك محمد دوغو، وقد خلفه في الحكم ابنه سني علي (869-897هـ/ 1464-1492م) الذي يعد المؤسس الحقيقي لصنغاي، إذ عمل منذ توليه الحكم على تنظيم جيش قوي مكنه من تنفيذ خطته التوسعية، حيث استولى على مدينة تمبكتو عام 873هـ/1468م، كما أخضع النيجر لسيطرته واستوى على مدينة جني (Trimingham: 1962، ص 93، نعيم قداح: 2015، ص69).

وخلاصة القول: أ ن سني علي كان عظيم الشأن بالنسبة لصنغاي، استمر حكمه حوالي ثمانية وعشرين سنة، تمكن خلالها من أن يحول دولته الصغيرة إلى إمبراطورية منيعة الجانب، مترامية الأطراف، وفي أثناء عودته من حرب مع الفولانيين تعرض هو وجنده لسيل جارف فأهلكهم سنة 897هـ/1492م. (السعدي: 1964، ص71)

وخلفه على الحكم ولده أبوبكر الذي ثار عليه قواد والده الكبار إذ لم يدافع العلماء في سبيل بقائه في الحكم، وذلك بسبب ضعفه وعدم إدارة الدولة بالشكل المطلوب، فرأى وزير أبيه محمد ابن أبوبكر الطوري أن الوقت حان ليتولى الحكم فقام بجمع أتباعه ونظم صفوفه غير أن هذه الثورة قمعت في مهدها قرب (جاو) ثم ما لبث الثائر أن جمع صفوفه من جديد وهزم أبوبكر الذي فر إلى مكان يدعى (اين) بقى فيه حتى وفاته سنة898هـ/1493م

صنغاي في عهد اسكيا محمد:898-923هـ/ 1493-1528م

شهدت مملكة صنفاي في عهده قمة مجدها الاقتصادي والعلمي ففي سنة 902هـ/1497م ثار عليه أهالي جني فأرسل لهم جيشاً تمكن من إعادتهم إلى سلطته، وأنه ما بين عامي 903-1516هـ/ 1498-1520م وسع حدد بلاده فضم مالي كلها وكانو، بل واجتاز بقواته مفزات الصحراء، كما ضم الكثير من أراضي القبائل البربرية، هذا وأعاد تنظيم المملكة إدارياً وعين حكاماً لكل الأقاليم، ووزيراً للمال وآخر للقصر، كما وضع ووزير للبحرية، وجباه للضرائب (محمد

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

باري: 2007، ص117) وأنه عمل على تطور النظام الإداري وبذلك دفع بالدولة نحو الحكم المركزي، فوضع نظام إداري بدعم من الزعماء والمسلمين والتجار، كما تضمن هذا التنظيم إنشاء وزارات مركزية لجميع شؤون الدولة (شلبي: 1982، ص297)، وهذا ما جعل الدولة تدخل أرقى عصورها في عهده بفضل وعيه وتقواه إذا كان ورعاً محباً للعلم، يتحلى بالعدل والحكمة – على عكس سني علي الذي لم يكن متحمساً للدين ولا شديد الاكتراث بشعائره، كما أنه تسلط على العلماء والصالحين بالفشل والإذلال (السعدي: 1964، ص64) – هذا وقام بأعمال جليلة لخدمة الإسلام (محي يوسف: 2007، ص64)، منها استقطاب القضاة والفقهاء الذي نال احترامهم وتقديرهم فلقبوه بالإمام المنتصر والخليفة العادل والسلطان الظافر (حسين مؤنس: 1987، ص375)

وفي عام901هـ/ 1496م قام اسكيا محمد برحلة إلى الحج واصطحب معه العديد من الحجاج قدر عددهم بحوالي 1500 مرافق ، وقد أضفت عليه رحلته تلك سمعة واسعة في العالم الإسلامي، نظراً للثروة المالية التي بددها أثناء رحلته (محمود كعت:1964، ص19) ، كما أنه حقق من خلال الرحلة التي قام بها إلى الأماكن المقدسة تطوير علاقات إيجابية مع الخليفة العباسي بالقاهرة، فحظى منه على لقب خليفة التكرور (حسن يوسف فضل: د.ت، ص101).

التنظيمات الأقتصادية والإدارية لصنغاي في عهد أسكيا محمد:

أما عن الاقتصاد في عهد أسكيا محمد فقد انتعش الاقتصاد وعم الرخاء، وذلك بسبب المشاريع الكثيرة التي نفذها الأسكيا والتي عادت بالثروة والإزدهار على كافة أنحاء البلاد، بالإضافة إلى ذلك قام بحضر القنوات على ضفاف نهر النيجر وذلك من أجل زيادة مساحة الراضي المزروعة، كما عمل على إيجاد مكاييل وأوزان موحدة الفرض منها ضبط عملية البيع والشراء (نعيم قداح: 2015: ص73).

هذا وقد صنع أسطولاً صغيراً من السفن، وأيضاً أقام نظاماً للضرائب يكون الدفع بمقتضاه عيناً ليملأ الخزانة العامة للدولة (دلاقوس: 1933، ص266)، ولعل الذي ساعده على ذلك استيلاؤه على مراكز الملح في تفازة، فغلق هذا نشاط تجاري واسع، إذ تمتعت البلاد برفاء عظيم وثراء كبير، مما جعلها محط أنظار العديد من التجار ولا سيما تجار طرابلس وفأس وتلمسان (نعيم قداح: 2015، ص73) ؛ لأن اقتصاد صنغاي اعتمد بالدرجة الأولى على تجارة الذهب والملح؛ لأنها تمكنت من السيطرة التامة على مناجم الذهب في الجنوب ومناجم الملح في الشمال، وقامت بتطويرهما لأنهما من أهم عناصر التجارة عبر الصحراء، وقد استمرت التجارة في انتعاشها وذلك بفضل اندماجها في التجارة الدولية للعالم الإسلامي، وبهذا تكون صنغاي في غناها فاقت مملكة مالي (شلبي: 1982، ص276).

وفي ظل الأمن الذي نعمت به صنغاي كانت التجارة ناجحة وتذر الرخاء والثراء على الحكومة والشعب معاً، كما كان الأمن والاستقرار سائداً فيها خاصة في عهد أسكيا محمد،

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

وأن الناس أ مناً وشرفاء، وكان القضاء عادلين في حكمهم، هذا ولا توجد الرشوة فيها باباً، الشركة ذات أثر فعال لدرجة أنه لا يسرق ولا يغش أحد، (شلبي: 1982، ص 277)، ولعل هذا الأمن والرخاء والاستقرار جعلها ترتبط بعلاقات خارجية قوية مع بلدان المغرب الإسلامي ووداي النيل، فقد وصلت البضائع من أوروبا والشرق والمغرب إليها لأن الاتصال بهذه البلاد مهماً بحكم سيطرتها على طرف التجارة الرئيسية الواقعة بين الشمال والجنوب. الغنيمي: د.ت ص115).

النظام الإداري في صنغاي:

حظيت صنفاي بنظام إداري ممتاز، وأن أسكيا محمد أعاد تنظيم الدولة إدارياً واتبع نظم دقيقة شملت النواحي المالية والعسكرية وأيضاً العلاقة الخارجية والقبلية، وذلك من أجل تحقيق وحدة قوية للدولة والقضاء على النزاعات القبلية التي كانت سائدة قبله فقد اعتمد على المركزية كعماد للتنظيم الجديد، هذا فيما يخص الشؤون الرئيسية والتشريع، كما اعتمد على الحكم المحلي بالنسبة للأمور الثانوية والتنفيذية، (محمد باري: 2007، ص126)، حيث أقام مجلساً للوزراء ووضع على رأسه رئيساً. وأنه ضم وزراء للعدل وللمالية كما ضم وزراء الشؤون الإدارية، وعين قائداً للجيش، وأعاد تنظيم الإدارة بأن قسم البلاد إلى أربع أقاليم عين لكل منها ح اكم يتبعه عدد من الوحدات الإدارية، وأيضاً أقام القضاة بالمدن الرئيسة وقد اصطحب منهم الكثير أثناء رحلته للحج، هذا وعين شيخاً للإسلام يكون مسؤولاً عن الشؤون الدينية جعل مقره الدائم مدينة تمبكتو (محي يوسف، 2007، ص64)

ويفضل جهاده حكمته وقوة تنظيمه الإداري وصلت المملكة إلى أقصى أساعها في عهده، فوصلت حدودها ما بين بحيرة تشاد شرقاً حتى المحيط الأطلنطي غرباً، أما شمالاً فغطت شمال نيجيريا، كما بلغت المملكة مبلغاً عظيماً من الرقي لم تبلغه أياً من ممالك المنطقة، وما تحقق في عهده من شأن عظيم وضع المملكة مكاناً عالياً على رأس مما سبقها من الكيانات السياسية. (محي يوسف: 2007، ص64)

التواصل العلمي والفكري بين صنغاي ومدن وعواصم الشمال الأفريقي:

يمكن القول أن مملكة صنيغاي في عهد الأسكيا شهدت قمة مجدها الاقتصادي والإداري وأقام برحلة إلى الحج – كما سبق وأن رأينا – أي أنه عسكرياً وإدارياً واقتصادياً مقتدراً، وأنه أي الأسكيا قد تأثر أثناء رحلته للحج بالمناخ الروحاني، فأغدق على الحجيج وأهل الحرم وتصدق بأموال باهظه واستحدث نظام الأوقاف فاشترى البساتين والحدائق بالمدينة المنورة وجعلها حبساً على خدمة حجاج صنغاي (محي يوسف: 2007، ص65)، وأيضاً تصدق بمائة ألف دينار من الذهب، واشترى منزلاً جعله حكراً للحجاج من أهل السودان. (محمود كعت : 1964، ص19)

ولعل هذا الحدث الذي أقدم عليه الأسكيا محمد خلال رحلته إلى الحج زاد من عدد الداخلين في العقيد الإسلامية، وأن ظهورهم كقوة إسلامية ساعدت في نشر الإسلام بين العامة والخاصة من شعب صنغاي (الغنيمي: د..، ص110)، وأنه بعد عودته من الحج عمل على إبطال الكثير من البدع المنتشرة من قبل، فأرغم النساء على اتباع قواعد

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

الاختلاط بالرجال وألزمهن اللبس الشرعي (محي يوسف: 2007،ص65)، كما انتهج سياسة إسلامية بحتة حيث قام بتعين شيخ للإسلام تكون له السلطة العليا في الأمور الدينية، (شلبي: 1982، ص 266)، والذي يمكن أن نلاحظه على أسكيا محمد أنه أثناء حجة بدل الكثير من الأموال ، وأه خرج في موكب فاق مواكب ملوك مالي من حيث الفخامة والأبهة، وصحبه في رحلته هذه القاضي محمود كعت، كما تصرف على بعض الفقهاء والعلماء مثل جلال الدين السيوطي ومحمد المغليلي. (محمد باري: 2007، ص119).

وللأسكيا محمد مواقف إسلامية شهيرة، ففي أثناء وجوده في مكة المرمة خلع عليه شريفها لقب خليفة بلاد التكرور وذلك بأمر من الخليفة العباسي المتوكل، (دلافوس: 1933، ص266) ، بالإضافة إلى ذلك أيضاً عمل شريف مكة بإقامة حفلة على شرطة في الحجاز ومنحه سيفاً أصبح فيما بعد رمزاً لشريعة الحكم، ويستخدم عند تنصيب ملوك صنغاي الجدد، (حسن يوسف فضل: د.ت، ص101) والذي نلاحظه على الأسكيا محمد أنه حاول أن يلعب الدور الذي قام به ابن ياسين، إذ أصبح داعية إسلامية على جانب كبير من الأهمية فأحاط نفسه بلفيف من العلماء والفقهاء المعروفين وأنه أعلن الدين الإسلامي ديناً رسمياً للدولة، (نعيم قداح: 2015، ص71) وقام بفتوحات توسيعية ذات مظهر إسلامي فأعن الجهد على قبائل الموسي الزنجية الوثنية وطلب من ملوكها الدخول للإسلام أو دفع الجزية فلما رفضوا حاربهم وانتصر عليهم حتى أن دولته جاوزت حدود مملكة مالي السابقة، وضمت مناجم الملح في تغازة لتصل إلى سواحل المحيط الأطلسي وإلى الصحراء موطن الطوارق والبربر في الشمال، وإلى بحيرة تشاد في الشرق بعد أن ضم إمارات الهوسة (الهاوسا) (شاكر: 1986، ص47)، ثم اكتسح سهول السودان، وبسط نفوذه غرباً إلى بلاد الماندينج والفولاني، وأسر أثناء معاركه الكثير من الأطفال والوثنيين فهداهم إلى الإسلام وأصبحوا جنوداً له (نعيم قداح: 2015، ص71)

اللغة العربية والثقافة الإسلامية في صنغاي:

أنتشرت اللغة العربية بنشر الدين الإسلامي وهذا أمر طبيعي؛ لأنها لغة القرآن الكريم، وأن الداخل في الدين الجديد يحتم عليه أن يتعلمها؛ لأن الاهتمام بالقرآن الكريم يستدعي عند أهل صنيغاي خاصة وعند مسلمي غرب إفريقيا عامة دراسة اللغة العربية، ورويداً رويداً عمت اللغة العربية أنحاء البلاد حيث كانت جميع المعارف والعلوم تدرس بواسطتها، وأصبحت لغة الكتابة الرسمية ولغة الثقافة والعقيدة والحضارة، وأن طلاب العلم في صنغاي يدرسون بها حتى تركت أثرها المباشر في اللغات المحلية مثل لغة الهوسا، والفولاني، وصنيغاي، وأنه يمكن القول أن اللغة العربية استخدمت في بلاد صنغاي في شتى مظاهر الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية (محمد بادي: 2007، ص125). لأن تيار الثقافة الإسلامية بدأ يقوى بها وذلك من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وخاصة عندما أصبحت تمبكتو وجني تحت حكم مملكة صنغاي (السعدي: 1964، ص21).

دخلت المعارف والعلوم الإسلامية المملكة، وقامت بدور فعال في ميدان الثقافة العربية الإسلامية والتي أثرت في الحياة الفكرية في صنغاي، وخاصة في ميدان الأدب والتاريخ والعلوم الإسلامية وعلوم اللغة العربية، وأيضاً ظهر نوع من الكتابات الأدبية ومما استدعى ذلك ظهور الشعراء والفقهاء من أمثال عبدالرحمن السعدي، وأحمد بابا التمبكتي، ومحمود كعت (الغنيمي: د.ت، ص118)، وقد رحل العديد من

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

علماء تمبكتو إلى الجهات الشرقية من صنغاي، وأقاموا بتفقيه الناس أمور الدين الإسلامي وأنهم عملوا على نشر الثقافة الإسلامية في أنحاء كثيرة من المملكة حيث امتد النفوذ الإسلامي إلى بحيرة تشاد، وفي الجنوب امتد ذلك النفوذ في عهد أسكيا محمد حتى وصل إلى بلاد الموسي الواقعة على حوض نهر النيجر (محمد باري: 2007، ص117)

إزدهرت في البلاد الحركة الفكرية وحركة التأليف والمعرفة ، إذ ظهر العلماء والفقهاء الذين تولوا مناصب عليا فيها ولا سيما في مجال الفقه والتفسير والحديث واللغة وعلم الفرائض الشرعية، فانبثقت حضارة إسلامية متطورة أخذت بأسباب الرقي والتقدم والتحضر، بينما كانت أوروبا تخوض حروب ومنازعات فيما بينها، أما في صنغاي في غرب أفريقيا والتي أتهمها الاستعمار بالتخلف كانت تشهد حركة إسلامية واسعة النطاق، لاحظها رجال الاستعمار وقادة الكشوف الجغرافية. (الغنيمي: د.ت. ص119-120)

وأيضاً، يمكن القول: إنه أي في صنغاي ظهرت مظاهر الحضارة الإسلامية في شتى ميادين الحياة في النواحي الإدارية والتنظيمية وحتى في شؤون الحكم والجيش والقضاة والتعليم والعمارة والفن، وكذلك في أمور الحياة اليومية، خاصة في عهد الأسكيا محمد الذي اعتبر صديقاً للعلماء، وأنه كان يحمل لهم عظيم التقدير والاحترام لدرجة أنه منع أي أحد إلا العلماء من الوقوف معه، وإن لا يأكل معه سواهم، ولعظيم خدماته للعلم والعلماء دعم جامعة سنكوري. وشيد العديد من المعاهد والمدارس العلمية، وجذب لها العلماء خاصة من المغرب والأندلس والبلدان، المجاورق (الغنيمي، د.ت، ص116، شلبي: 1982، ص278)

ونتيجة لذلك، ظهرت مدن إسلامية مثل (كانو – كاتسينا) هذا وجذبت هذه المدن طبقات العلماء والمثقفين من أمثال أحمد بابا التمبكتي الذي جلس بها يدرس الناس (شلبي: 1982، ص278)، كما استجاب أسكيا محمد إلى توجيهات الشيخ عبدالكريم المغيلي والذي نصحه بقوله (وجب عليك تطلب علماء من أهل الذكر حيث كان أهل الذكر في هذه الأمة كالأنبياء من الأمم الماضية يجب الاعتماد عليهم والسعي إليهم" (المغيلي: ورقات 13، 16). هذا وقد كانت صنغاي مفتوحة لكافة العلماء وطلاب العلم من أرجاء العالم الإسلامي، والذي شجعهم على ذلك وجود رعاية من قبل الدولة لهم التي وضعت أسساً متينة في مجال التعليم فتكلفت ببناء بيوت للطلاب، ومنحتهم مكافآت مالية، ومنحت العلماء رواتب سخية(الشيخ الأمين:1979م، ص211، 218)

كما وفرت المكتبات الزاخرة بالكتب الثمينة والنادرة لخدمتهم، وهنا يجدر القول، أن صنغاي كانت نواة لنهضة ثقافية عرفتها البلاد خلال القرنين (العاشر والحادي عشرة الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين)، فاستردت تمبكتو مكانتها كمركز للثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا، بل وأصبحت قبلة للأساتذة الزائرين وذلك بسبب كثرة مدارسها والتي بلغت حوالي 150 مدرسة في نهاية القرن (10هـ/16م)، كما أن وجود جامعة سنكوري فيها أعطتها عناية كبيرة فوصلت في عهد الأسكيا إلى ما لم تصل إليه من قبل، فكانت هذه الجامعة في

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (4) العدد (2)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (4) No (2))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

بلاد السودان الغربي بمثابة جامعة الأزهر في القاهرة، وجامعة القرويين في فأس بالمغرب الأقصى، وجامعة الزيتونة في تونس، والجامعة النظامية في بغداد (نعيم قداح: 2015، ص 70-73، محمود كعب، 1964، ص180).

وخلاصة القول: أنه على الصعيدين الثقافي والفكري الإسلاميين أن الأسكيا محمد لم يدخر وسعاً ولا وسيلة إلا واتخذها لرعاية الأدباء والعلماء وطلاب العلم وأغدق عليهم النعم ومراتب الشرف فساعد الفقهاء والدعاة في نشر الدين الإسلامي، وأنه في ظل النفوذ الإسلامي لصنغاي لا توجد دولة في تاريخ السودان الغربي قد وصلت إلى هذا القدر من التوسع والازدهار مثلما بلغت إمبراطورية صنغاي الإسلامية.

الخاتمة

في ختام هذا البحث وبعد الاطلاع على بعض الكتب المتعلقة بموضوع مملكة صنغاي الإسلامية أو تلك المتعلقة بدراسة تاريخ بلاد السودان الغربي، توصلت إلى العديد من النتائج والملاحظات الهامة نجملها في النقاط التالية:

- مملكة صنغاي لم تصل إلى ما وصلت إليه من عظمة وقوة إلا بعد أن أضحى الإسلام عصب قوتها الروحية والمادية، وصارت اللغة العربية لغة الكتابة الرسمية.
- إن علماء صنغاي كانت نظرتهم للسياسية تنصب في أمرين أساسين هما: أن يكون طابع الدولة إسلامياً، وأن تظل امتيازاتهم المميزة كما هي.
- وجد الدعاة والعلماء تشجيعاً كبيرا من الأسكيا محمد الكبير ومن جهاته الرسمية، وفي ظل هذا التشجيع بدأ الدعاة والفقهاء في تأسيس المدارس والخلوات التي كانت قبلة لأبناء المسلمين والوثنيين على حد سواء ودون تمييز، الأمر الذي أدى إلى انتشار الإسلام والثقافة العربية بنجاح باهر بين أهالي صنغاي.
- أن هذه المدارس وتلك الخلوات تتكاثر وتزدهر حتى أن بعضها أضحى مركز إشعاع حضاري يستقطب أبناء صنغاى بصفة خاصة وأبناء السودان بصفة عامة دون اعتبار لفارق الدين أو اللون.
- تجلت مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في صنغاي خلال عهد الأسكيا محمد الكبير وترتب عليها تكوين حكومة ونظم إدارية متقدمة ونتيجة لذلك انتقلت حياة المجتمعات القبلية المفككة إلى مجتمع الدولة المركزية.
- نتج عن الحركة الإسلامية توحيد الامتزاج الكامل بين النظم العربية الإسلامية وبين الأنماط الأفريقية المحلية.
- أيضاً نتج عنها ظهور عنصر جديد يوائم بين ما غرسه الإسلام من ثقافة عربية، وبين الموروث من التقاليد والأنماط الأفريقية أي بمعنى برزت الشخصية الأفريقية في إطار إسلامي.
- في عهد الأسكيا محمد الكبير ازدهرت الحياة والعلاقات الاقتصادية، وواكب ذلك أن بعض تجار صنغاي الذين كانوا يقصدون شمال أفريقيا ومصر للتجارة انخرطوا في الدراسة في مراكز الشمال العظمي.
- كثرت المدارس والمكتبات العامة في تمبكتو وكانت مفتوحة لاطلاع الطلاب والراغبين في الدراسة والعلم، كما أن هذه المكتبات احتوت على نفائس ونوادر الكتب والتي تمثل الرصيد الحقيقي من التراث الإسلامي والعربي في هذه البقاع .

Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

- بدأ الإسلام يتسرب بين صفوف شعب صنغاى في ظروف متشابهة لنفس الظروف التي تسرب بها بين شعبي غانة ومالي.
- تمتعت صنغاي بأهمية اقتصادية كبرى حتى أصبحت عاصمة مالي الاقتصادية.
- لا توجد دولة في تاريخ السودان الغربي وصلت إلى هذا القدر من التوسع والازدهار والنفوذ مثلما بلغت مملكة صنغاي الإسلامية .
- وأيضا أن التزام أهل صنغاي بعقيدتهم الإسلامية بعد أن أصبح الإسلام ديناً رسمياً للدولة بدايةً من عهد الأسكيا محمد الكبير قد أحدث تغييراً كبيراً في تركيبة المجتمع في بلاد السودان الغربي بصفة عامة وفي مملكة صنغاي بصفة خاصة، فقد تخلى هذا المجتمع عن عادة نظام الوراثة عن طريق الأمومة، وأصبح الأبناء ينتسبون إلى آبائهم حسب ما جاء به الإسلام.
- حققت المملكة تقدماً علمياً لم يسبق له مثيل دفع بها إلى طريق التحضر الزاهر، فأخرجت علماء أمثال محمد كعت المؤرخ الذي عمل وزيراً لأسكيا محمد، وعبدالرحمن السعدي مؤلف تاريخ السودان وأحمد بابا خبير الشريعة الإسلامية، ومحمد المغيلي المعروف بالبغدادي والذي كان على مستوى علماء الشرق حتى يمكن القول أنها شهدت تطوراً وازدهاراً ثقافياً ملحوظاً مما كان له السبب في إرساء دعائم نهضة ثقافية إسلامية وفكرية كبرى.
- غلبت الثقافة المغربية على الحياة الثقافية في صنغاي، وهذا شيء طبيعي ما دامت بواكير الثقافة العربية الإسلامية تدفقت إليها من المغرب الإسلامي وعلى نطاق واسع منذ القرن (5هـ/11م) فصاعداً.

قائمة المصادر والمراجع

1. الأحمد: امحمد مصباح، تاريخ العلاقات العربية الأفريقية، دار الملتقى، بيروت، ط1، 2010م.
2. باري: محمد فاضل علي، سعيد إبراهيم كريدية، المسلمون في غرب إفريقيا، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط 2007.
3. بليغ: أحمد فؤاد، عبد الرحمن السعدي، عصره، وكتابه، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، د.ط، مج 20، 1973م.
4. التكيتك: جميلة إمحمد، مملكة صنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير (1493 – 1528م) منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس، ط1، 1998م.
5. تونبي: أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، القاهرة، د. ط، 1935.
6. دلافوس: موريس، سنغاي، دائرة المعارف الإسلامية، مطبعة الاعتماد، القاهرة، د.ط، مج 12، 1933 م
7. زبادية: عبد القادر، مملكة صنغاي في عهد السقيين (1493 -1591م) الشركة الوطنية، الجزائر، د.ط.، د.ت.
8. زكي: عبد الرحمن، الإسلام والثقافة العربية بأفريقيا الغربية، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، د.ط، 1961م
9. زمان: عبيد وناس، تمبكتو وأثرها الحضاري في العصور الإسلامية المتأخرة، دار الأيام، عمان، د.ط، 2018م
10. السعدي: عبد الرحمن، تاريخ السودان، باريس، د.ط، 1964م.
11. سوالمية: محمد عبدالرحمم، تمبكتو جوهرة تغمرها الرمال، بيروت، د.ط، 1986م.

Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v4i2.3452)
ISSN : 3740-2791

12. شاكر: محمود وبيلتو، سلسلة مواطن الشعوب الإسلامية في أفريقيا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، رقم 14، 1986م.

13. شلبي: أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ط، مج6، 1982م .

14. الشيخ: محمد الأمين عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطتين الإسلاميتين مالي وسنغي. دار المجتمع العلمي، جده، د.ط، 1979م.

15. عابدين: عبد المجيد، تاريخ الثقافية العربية في السودان منذ نشأتها إلى العصر الحديث، دار الثقافة، بيروت، ط2، 2016م.

16. العربي: إسماعيل، حاضر الدول الإسلامية، مؤسسة الكتاب، الجزائر، د.ط، 2021م.

17. الغربي: محمد أحمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد، د.ط، 1982م

18. الغنيمي: عبد الفتاح مقلد، حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا، جامعة القاهرة، القاهرة، د. ط، د.ت.

19. فتاح: فوزية يونس، التأثيرات الحضارية العربية على السودان الغربي بين القرنين (4-8 هـ / 10 – 14م) جامعة الموصل، د.ط، 1994م.

20. فضل: حسن يوسف، انتشار الإسلام في أفريقيا، محاضرات وزارة الثقافة، دولة الإمارات، د.ط، د.ت.

21. الفيتوري: عطية مخزوم، دراسات في تاريخ شرق أفريقيا و جنوب الصحراء (مرحلة انتشار الإسلام) جامعة قاريونس بنغازي، د.ط، 1998م .

22. قداح: نعيم، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، مكتبة أطلس، دمشق، د.ط، 2015م

23. كامل: مروة، نحن في أفريقيا، مطبعة الاتحاد، بيروت، د. ط، 2019م.

24. كعت: محمود، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، مكتبة أميركا والشرق، باريس، د.ط، 1964م.

25. المزيني: صالح مفتاح، دور المراكز الداخلية في نشر الإسلام، مجلة كلية الآداب، جامعة عمر المختار، البيضاء، د.ط، 2004م.

26. المغيلي: محمد عبد الكريم، أسئلة الأستقيا وأجوبة المغيلي، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، د.ط، 1974م.

27. المنجد: صلاح الدين، مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، دار الكتاب الجديد، بيروت، د.ط، 2020م.

28. مؤنس: حسين، أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، د.ط، 1987م.

29. نورى: دريد عبد القادر، انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء من القرن (4-10هـ / 10-16م) الموصل، د.ط، 1985م.

30. الوزان: الحسين، وصف أفريقيا، الرباط، د.ط، 1982 م.

31. يوسف: محي: قراءة في تاريخ الإسلام، دار الخلود، القاهرة، د.ط، 2007م.

32. Trimingham.J.p. A History of Islam in. West Africa, London Oxford University press. 1962.